الادب العالمي

على هامش خمسة كتب جديدة

— ١ —

البطل

ان البطل رجل خرافي عاش في خيال الناس زماناً يحيكون حوله الاقاصيص والاساطير ليكون إلهاً لا تسمو اليه الانسانية الضعيفة ، او بشراً قضى عمره في بشرية خارقة هي فوق طاقة البشر . هكذا قال اللورد راجلان في نظريته الحديثة التي طلع علينا بها منذ حين في كتابه (البطل) . ولعلّ في نظرية اللورد راجلان ما يفزع عبقرية الكتّاب والشعراء والمؤلفين والعلماء، وما يهيج في صدورهم الاحقاد والضغائن، فهو قد نفى النبوغ والشذوذ والتفوق في وقت معاً ، وركب متن الشطط فراح ينقض حوادث التاريخ من بعد قوله أنكاتاً « إن روبين هود الذي عاش عند سنة ١٢٠٠ لم نعثر له على وثيقة واحدة تثبت وجوده » وقال « إن كيث مارلو انطلق يحدّث عن هيلانة زوج منيلاوس وعشيقة فاريس ، والتي ارسلت الحرب شعواء طاحنة بين قوم زوجها وعشيرة خليلها بعد ان فزعت عن دار الاول لتستقر في أحضان الثاني . . . قال :

فكانت هذه الظلمة الفتانة هي التي قذفت بآلاف من السفن الى قاع البحر
وأججت النار في أبراج إليون
يا هيلانة الجميلة ، هي لي الخلود بقبلة واحدة

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن » . ثم اندفع يهدّم حوادث فرجام (ملك الطروادين) وزعم ان حروب طروادة أساطير لم تكن في الوجود بل هي قصص كان يتغنى بها القسيسون والرهبان في محاريبهم ومعابدهم ضُمّنت اشتاتها بعض الى بعض لتكون ملحمة عظمى، هيلانة منها براء ، وهي المرأة الشريفة الطاهرة التي ترعى حق زوجها وحق دارها معاً ، وأخذ يضرب على هذا الوتر طويلاً لا نرق عنده بين سندريلا وموسى او يوسف

وفي الحق لا بد ان نطمئن الى هذا الرأي قليلاً قليلاً فهو منطقي الى حد ،

وهو قد كشف لنا عن أساطير وأكاذيب فيها التلفيق والحشوة إن الملك آرثر — مثلاً — واخيل وروميلوس وريمس . . . اناس عاشوا على الارض زماناً ودوّت اسماؤهم في ارجاء الدنيا ، غير ان الالسن قد تناقلت عنهم أقاصيص هي من وحي الخيال فحسب ، لارضاها العقل ولا يستسيغها الفكر ، وحسبنا أن نرى في أقاصيص الاقتصاد بطلاً هو هو . . . كلفن كوليدج

غير أنهُ يتراءى لي أن اللورد راجلان أرخى لخياله العنان قليلاً في كثير مما جاء في كتابه

ولقد وضع نصب عينيه ثلاث قواعد : ان يكون البطل رجلاً عادياً عاش عمره على الارض ثم حيكت حوله الاساطير الخرافية لتسمو به ، أو أن يكون بلغ مكاناً رفيعاً فذهب رِمَمهُ في الناس ، أو أن يكون خرافة ولدت في خيال مخصب فخصب

فماذا ، إذن ، لا يقول اللورد بان البقري رجل ضم في حياته ناحيتين فجمع بين الحقيقة والخيال ، وألف بين الواقع والخرافة ، ثم حالت قصة حياته الى شيء من التقدير الذي يقرب من العبادة ؟

— ٢ —

ديبوسي ، الرأس المفكر :

لقد قضى كلود أشيل ديبوسي ايام شبابه في باريس عابثاً مرحاً يطير من نديّ فلا يقع — حين يقع — إلاّ في مقهى ، حيث يحتشد الفنانون ، فيجلس هو صامتاً يردد بصره بين الندل والجالسين في وقت معاً ويحدّق فيهم كأنهُ يفتش عن شيء لايجده . وهو دائماً يهفو الى مقهى «فير» يجلس الى النافذة فما يحوّل بصره عن الغابة التي على مدّ البصر منه ، أو الى نديّ «شا نوار» — (الهرّ الاسود) — فيسمر مع إحدى رفيقاته : جاي ديبون الجميلة ذات العينين الخضراوين أو الى روزالى تكستير الفتانة ، حتى استطاعت الاخيرة ان تغلبهُ على أمره فتزوج منها ، والطوى عن الاولى وفي قلبه صبابة من حب

وفي الحق لقد كان الرجل زوجاً وفيًّا لا يعدل بفتاته امرأة أخرى ، وهي أيضاً قد قاسمتهُ حياة الضنك والفاقة في صبر ووفاء

وحين ألّف «أوبرتهُ» « بِلياس وميلزاند » التي سمت به الى أوج الشهرة ،

المصورة ، عن الاشارة الى الاشعة الضوئية أيًّا كان نوعها وطول موجتها ، ولو كان من الاطوال التي لا تراها العين المجردة . وهذا يقضي استحالة نقل الصور في اثناء انتشار الضباب وفي الليل، وبين لنا تعذر ادخال التلوين عليها ايضاً في آخر الامر. ولا بدَّ انهُ سيأتي وقت تتمكن فيه من اضافة الصور بأجمعها ونقلها مقرونة بتلحين الصوت والعناصر التي تتألف منها على بعد صورة ميكانيكية جذابة ذات رونق يستهوي مشارب المتعلمين وذلك بموجات تتحرك في آن واحد

(جهاز بيرد J. L. Baird) هو من النماذج العملية الاولية وقد قررت شركة الاذاعة البريطانية تجربة جهازين مختلفين من اجهزة الاذاعة اللاسلكية المصورة جنباً الى جنب لكي تختار اصلحهما اختياراً نهائيًّا . وكانت تلك التجارب الابتدائية تجرَّب بأجهزة معظمها وقتية مصحوبة بجملة عدسات قديمة وشمع الختم والدوبارة، ومع ذلك فقد أسفرت عن النجاح اذ اتيح نقل صور متقنة واضحة جدًّا في سنة ١٩٢٥

وقد تحسنت الاجهزة في السنين التالية تحسناً عظيماً فغدت شركة الاذاعة البريطانية تنقل الصور نقلاً منتظماً وكان من العوائق التي تكشفت في بدء الامر ضرورة وجود قوة الضوء العظيمة لانارة الاشخاص المراد نقل صورهم. فحاول العلماء تذليل تلك العقبة باكتشاف نافع وهو التمكن من نقل الصور بالراديو نقلاً جيداً بوساطة الاشعة الخفية ، يكاد يضارع نقلها بالضياء الابيض المألوف ولعني بالاشعة الخفية الاشعة التي تحت الاحمر التي تستطيع اختراق الضباب والتي لا تراها العيون المجردة . فأضحى ميسوراً نقل صورة شبح في الظلام الحالك تقريباً . وقد تتبين فائدة اختراع هذا الجهاز عند تطبيقه على البواخر . فكل باخرة يُركَّب فيها منظار ليلي قوي (نوكتوفيزور Noctovisor) يتسنى لها رؤية غيرها عندما تدنو منها في الضباب الكثيف ، ولو كانت تلك الباخرة القادمة مختفية كل الاختفاء عن العيون البشرية المجردة

وقد اقترح بعضهم إمكان استعمال جهاز الشعاع السلبي لتلك الغاية . فاذا ما أرسلت إحدى البواخر اشارة ثابتة في اثناء انتشار الضباب الكثيف ، ظهرت الاشارة على شاشة رقاص الشعاع السلبي بمثابة سلسلة خطوط فتنبه ربان الباخرة الى دنوّ الباخرة الاخرى منهُ . ويتوقف نجاح الاذاعة اللاسلكية المصورة على صفة الصور ، وقوامه في الاغلب ، السرعة والضبط ، اللذان يستعملان في ارسالها. وفي مطلع هذا الاختراع كان يستعمل ٢٤ خطًّا ثم زيد هذا العدد الى نحو ٤٠٠ خط و٢٠ أطاراً في الثانية، فكانت النتيجة صورة تكاد تكون مشابهة للصورة الاصلية. اما في حالة نقل الصور السريعة الحركة فيدخل فيها تعقيد آخر ، لان السينما المعتادة مشهورة بكونها صيغة من صيغ الخداع البصري ، لأن الذي نراه على الشاشة ليس صورة متحركة ثابتة حقيقية بل سلسلة كاملة من الصور الفوتوغرافية تمرض تباعاً عرضاً خيثاً جدًّا بحيث تخدع عينك فتتخيلها صوراً متواصلة

ليبلغ الغاية فيسلم الروح ، بل هي شيء مقدس لا بدَّ ان يبدده الناس لان فيه نغم لحن موسيقي أخاذ . . . وأراد ان يعفت في حياته معاني الموسيقا الحيية الى نفسه ، فنأى بعقله عن آلامه فهي لا تملك عليه السبيل ولا تزعزع من عزيمته الحيَّاشة ، ونأى بقلبه عن أفراحه فهي لا تسيطر عليه فتسلبه رزانته وهدوءه ، ثم اطمأنَّ الى حياته وفيها الرضا والطمأنينة . . . وأغرم بالبلاغة والبيان شأنه في ذلك شأن آرائه من الادباء الرمزيين . . . وشرب الخمر بقدر ما رؤى في سني عمره مرة واحدة فتاخ العقل يضطربُ في مشيته ، أو ذاهلاً يترع ويهذي بما لا يعي . . . واشدّ ما أساءت اليه الخمرة فكان يشعر كأن شيئاً يحبس نفسه فيتململ في سكون . . . »

هكذا كان ديموسي كاتباً وشاعراً وناقداً وموسيقيًّا ، فانتن في كل ذلك ليخلّف من ورائه صفحة طيبة الذكر من صفحات تاريخ الباقرة على الارض

— ٣ —

من أدب المرأة الالمانية :

تتحدَّث المرأة عن نفسها وآلامها فتبدي عن شيء وتخفي شيئاً حياءً منها وكبرياء . ثم هي تخلو الى القرطاس فتطرح عنها ثوب الكبرياء والخجل ، وتفتح أمامه مغاليق قلبها ليرى فيها أشياء غُمَّت على الناس ، وبين جنبيها قلب يحمل في اضعافه أندى من العاطفة النبيلة حيناً وأعاصير من روح الشر العاصفة أحياناً . . . ثم هي تجد في قلبها لمسات الهوى فتنسى كل شيء إلاَّ الرجل الذي أحبت أنانية منها وطبيعة ، والمرأة هي هي في كل حين وفي كل وطن

وأسلوب المرأة رقيق طلي يأخذ بالالباب كأنهُ رنّات صوتها العذب ، وقلبها معلق دائماً بالامل الحلو . . . الدار والرجل والولد ، تلك أمنية لا تستطيع ان تنزع عنها وان هي فعلت فلا تلبث ان تتردَّى فيها من ناحية أخرى

جريت جولبرانس وفريدة اشترندرج والبصابات شخت ، ثلاث ممن كتبن في القصص الالماني فأبدعن وصفاً واتقاناً ، والمرأة — دائماً — تسبح في آفاق من الخيال منفسحة الارجاء ، فتجيد الوصف والتصوير . هكذا كانت السيدة جريت في قصتها الاخيرة « ظلال محبوبة » "Geliebte Schatten" فهي تصف في روعة ومهارة حياة أسرة عاشت تتقلب بين ربوع سويسرا وجبال المانيا الجنوبية

وإذا كانت جريت قد نشرت أمامنا صورة من خيالها الراقي الجميل فريدة

مجذبًا الى عصور كان الناس فيها يهيمون بالعبقرية ويرفعونها الى سماء التقديس. ففي أواخر القرن التاسع عشر كان أمل كل فتاة مهذبة ان تلقي بنفسها بين احضان رجل تهبهُ جسمها وروحها ثم تقاسمهُ مناعب حياته واعباءه. ولقد سيطرت هذه الخاطرة على عقل الفتاة (فريدة) فوقعت في حبالة كاتب كبير يكبرها بسنوات وسنوات هو أوغست أشترندبرج وقعت في حبالته حين اسرتها عبقريته وظرفه فتزوجت منهُ، غير ان حياتهما الزوجية لم تدم طويلاً فافترقا. وبعد سنوات راحت هي تصور حياة الكاتب الكبير من الناحية النسائية — وهي ما زال تهفو نحوه — ، ولعلَّ الغيرة التي تأججت بين ضلوعها — حين رأتهُ قد تزوج من غيرها — هي التي دفعتها الى ان تحلل خواطر الرجل الذي عاشت الى جانبهِ عمراً من عمرها ، بعد اذ أحست ببعض شقاوتهِ في داره الجديدة ، فأخرجت للناس قطعة من الادب العالي هي درة في جبين تاريخ الادب العالمي

وكتبت اليصابات نشخت قصتها « يونكا » تقص حادثاً فيهِ السلوة والمتعة ، فهي تصف لنا فتاة جمعت بين الجمال الاوربي الجذاب وبين سمرة البشرة الشرقية الفتَّانة هي « يونكا » نفسها ، كانت أمها أميركية وأبوها أوربيًّا فاختار هو لها هذا الاسم يعني بهِ الفريدة ، وفي الحق لقد كانت فريدة في كل شيء ، في خلقها العالي النبيل ، وفي عاطفتها الشريفة المضطرمة ، وفي نفسها الرقراقة الصافية ، وفي عقلها الحصيف الناضج ، وفي جمالها الآسر الخلاَّب . . . تزوجت « يونكا » من ضابط ألماني فتفتح الزواج عن طفلة جميلة هي لبلى بعث بها أبوها الى بلاده لتلقى علومها هناك ، وبعد حين فجعت المرأة في زوجها ، على حين كانت قد تعلقت رجلاً من وطنها أميركا . . . واصطرعت الخواطر في رأس المرأة ، أتترك وحيدتها هناك تذوق مرارة الوحدة والغربة معاً، أم هي تسرع اليها فتخلف قلبها عند الرجل الذي أحبت، أم هي تدعو صاحبها ليرافقها الى هناك ؟ وأنى للرجل أن يفعل وهو زوج، وامرأتهُ على فراش المرض ما تستطيع ان تبرح ؟ وجاءت ساعة الوداع لتطلق الام الى ابنتها ويظل الرجل العاشق الى جانب زوجته المسكينة . . . وفي هذا الكتاب وصف رائع لاقطار كثيرة هي من معجزات الادب ولاسيما وصف يونكا لبلادها

ثلاث قصص تكتبها المرأة فلا تستطيع ان تخفي بعض ما يضطرب في قلبها وهو يتحرَّق شوقاً الى ان تصبح هي ربة دار وزوجة وامًّا . . . كامل محمود حبيب